إثبات المحبة والإرادة الشرعية لله تعالى

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥]، {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩]، {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٧]، {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢].وَقَوْلُهُ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٣١].وَقَوْلُهُ: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: ٥]، وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: ١٤]).

(الشرح)

أردف المصنف، رحمه الله، آيات المشيئة بآيات المحبة؛ ليتبين الفرق بين نوعي الإرادة الكونية؛ وقد دلت هذه الآيات على إثبات صفة المحبة لله تعالى إثباتًا حقيقيًا، لائقًا بجلاله؛ لا يستلزم شيئًا من لوازم المحبة البشرية؛ فلا يجوز تحريفها إلى معانٍ مجازية؛ بمحض الشبهات، والظنون الخاطئة.

قوله: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥]: الإحسان: لغة الإتقان، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (إِنّ اللّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ)[١]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنّ اللهَ عَزّ وَجَلّ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذّبْحَ ، وَلْيُحِدّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)[٢]، أي يأتي به على الصفة الكاملة، فتكون العبادة تامة بشروطها، وأركانها وواجباتها، وسُننها.

والإحسان شرعًا: فسره النبي، صلى الله عليه وسلم، تفسيرًا لا مزيد عليه؛ فقال: (أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنّهُ يَرَاكَ)[٣]، فجعله أعلى مراتب الدين، **وفسره بأحد أمرين:**

المعنى الأول: (أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنّكَ تَرَاهُ) وهذه عبادة الطلب، وهي أعلاهما؛ بأن يعبد ربه عبادة الراغب إليه، المُشتاق إليه، فهو مُنجذب إليه، يسعي للوصول إليه.

المعنى الثاني: (فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنّهُ يَرَاكَ)، وهذه عبادة الهرب؛ يعني إن لم تبلغ مرتبة المحبة، والانجذاب، والشوق، في عبادتك، فلا تنزل عن رُتبة الخوف، والشعور برقابته.

والمؤمن يتراوح بين هاتين الحالين؛ الرجاء وحال الخوف، كما قال تعالى: {يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء: ٥٧].

فمن حقق الإحسان وسعى فيه نال محبة الله تعالى، وقد ذكر الله ذلك، بعد قوله سبحانه: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التّهْلُكَةِ} [البقرة:

---

[١] أخرجه أبو يعلى في مسنده: رقم (٤٣٨٦)، وقواه الألباني في الصحيحة نظرًا لشواهده: رقم (١١١٣).

[٢] أخرجه مسلم: رقم (١٩٥٥).

[٣] أخرجه البخاري: رقم (٤٧٧٧)، ومسلم: رقم (٨).

١٩٥]، فوقعت تعليلًا لما سبق، فالمنفق نفقة واجبة أو مُستحبة، محسن؛ والله يُحب المُحسنين.

قوله: {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩]: القسط: العدل، والمقسطون: هم أهل العدل، الذين يعدلون في أموالهم، وأهليهم، وما ولوا، والعدل واجب، والفضل مُستحب؛ فالواجب على المؤمن أن يأتي بالحد الأدنى، الذي هو العدل، وما زاد فهو فضل؛ كما في قوله تعالى: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [المُمتحنة: ٨]؛ فالبر فضل، والقسط فرض؛ فلا يجوز للمُسلم أن ينزل عن مرتبة العدل، حتى في تعامله مع الكافر؛ فإن من الناس من يظن أنه إذا تعامل مع كافر؛ يهودي، أو نصراني، أو بُوذي، أو غير ذلك من الملل الباطلة، فله أن يستطيل عليه بخداع أو غش، أو ينال منه بكلام أو مسبة! وهذا يُخالف أصول الإسلام القائمة على العدل؛ فلقد بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، إلى يهود خيبر، (وكان عَبْدُ اللّه بْنُ رَوَاحَةَ يَأْتِيهِمْ كُلّ عَامٍ يَخْرُصُهَا عَلَيْهِمْ، ثُمّ يُضَمّنُهُمُ الشّطْرَ، قَالَ: فَشَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ شِدّةَ خَرْصِه، وَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوه، فَقَالَ: «يَا أَعْدَاءَ اللّه أَتُطْعِمُونِي السّحْتَ، وَاللّه لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبّ النّاسِ إِلَيّ، وَلَأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِلَيّ مِنْ عِدّتِكُمْ مِنَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، وَلَا يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيّاكُمْ وَحُبّي إِيّاهُ عَلَى أَنْ لَا أَعْدِلَ عَلَيْكُمْ»، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)[1].

وقد أمر الله تعالى بالقسط، وأخبر بمحبته للمقسطين، إثر قوله: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى

[1] أخرجه ابن حبان في صحيحه: رقم (٥١٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود: رقم (٢٦٥٨)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحُجرات: ٩]، فمن استعمل العدل في أموره كلها فهو أهلٌ لمحبة الله.

قوله: {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٧]: هذا في شأن المُعاهدين، فقد ذكرها بعد قوله: {إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}؛ فإن الله تعالى لما أنزل سورة براءة، وقد تضمنت آية السيف، كان بين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبين بعض قبائل العرب عُهود مطلقة، فلم تكن آية السيف لتقطعها؛ لأنه ليس من شأن أهل الإسلام الغدر، وغاية ما في الأمر أن إذا خفنا منهم خيانة أن ننبذ إليهم على سواء؛ كما قال الله تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال: ٥٨]، وإلا فالأصل الوفاء بالعهود إلى مُددها، فما داموا مُلتزمين بالعهد، فإنا نقابلهم بالمثل؛ فبيّن أن هذه الاستقامة عُنوان تقوى الله، عز وجل؛ لأن النفس قد يُزين لها إذا رأت من الطرف الآخر ضعفًا أن تثب عليه، فلا يحجزها من ذلك إلا تقوى الله، عز وجل؛ لهذا كانت الجُملة مُعللة للحكم.

والتقوى: امتثال أوامر الله، واجتناب مناهيه، وحقيقتها: أن يقوم في القلب واعظ يمنع الإنسان من الوُقوع في محارم الله، ويحمله على فعل أوامره؛ قال ابن المعتز:

خل الذنوب كبيرها ... وصغيرها ذاك التُقى

واصنع كماشٍ فوق أرض ... الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

فتقوى الله أعظم ما أُعطي العبد؛ قال الله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحُجرات: ١٣]، وسُئِلَ رَسولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عليه وسلّمَ: مَن أَكْرَمُ النّاسِ؟ قالَ: (أَتْقَاهُمْ لِلّهِ) [١]. وهذا التوقي في الدنيا يكون في الآخرة وقاية له من عذاب الله؛ فمن تقوى الله، عز وجل، حفظ العُهود، وعدم هدرها، كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنّي لَا أَحبِسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ) [٢].

قوله: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ} [البقرة: ٢٢٢]: جمع تائب، و(تاب، وثاب، وآب) بمعني متقارب لغةً، أي رجع وعاد، وذلك أن التائب يرجع من المعصية إلى الطاعة، واصطلاحًا: الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة.

والتوبة من أشرف العبادات، وأحبها إلى الله؛ قال الله تعالى في الحديث القدسي: (كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطّائِينَ التّوّابُونَ)[٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: (وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)[٤]، وقال: (لَلّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِه حِينَ يَتُوبُ إِلَيْه، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِه بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِه، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمّ قَالَ مِنْ شِدّةِ الْفَرَحِ: اللهُمّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدّةِ الْفَرَحِ)[٥]؛ فالتوابون هم الذين يُكثرون

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٣٨٣)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٣٧٨).

٢ أخرجه أبو داود: رقم (٢٧٥٨)، وأحمد: رقم (٢٣٨٥٧)، والنسائي في الكبرى: رقم (٨٦٢١)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٤٨٧٧)، والحاكم في المستدرك: رقم (٦٥٣٨).

٣) أخرجه أحمد: رقم (١٣٠٤٩)، والترمذي: رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: رقم (٤٢٥١)، والحاكم في المستدرك: رقم (٧٦١٧)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٤ أخرجه مسلم: رقم (٢٧٤٩).

٥ أخرجه مسلم: رقم (٢٧٤٧).

التوبة، ولقائلٍ أن يقول: إن من يُكثر التوبة فإنه يُكثر الذنب! فالجواب: أن هذا من طبيعة بني آدم، كما تقدم في الحديث، وقد جاء أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال :(أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذّنْبِ، ثُمّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذّنْبِ، ثُمّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ)[1]، أي ما دام أنه يُذنب فيستغفر؛ مُستوفيًا لشروط التوبة، فإني لا أزال أغفر له، وإنما كان الله تعالى يُحب التوابين، لأن التوبة عبادة تُنبئ عن تجدد الإيمان في القلب، لكن التوبة الممدوحة هي التوبة النصوح، التي تكون مُقترنة بالإيمان، والعمل الصالح ؛كما قرن الله بين هذه الخصال في أربعة مواضع من كتابه، فقال: {إِلاّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا} [مريم: ٦٠]، وقال: {وَإِنّي لَغَفّارٌ لّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمّ اهْتَدَى} [طه: ٨٢]، وقال: {إِلاّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدّلُ اللّهُ سَيّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان: ٧٠]، وقال: {فَأَمّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} [القصص: ٦٧].

و(التواب): اسم من أسماء الله الحسنى، كما أنه يوصف به العبد؛ فالعبد تواب لأنه يتوب إلى الله، والرب تواب لأنه يتوب على العبد؛ قال الله عز وجل: {ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ} [التوبة: ١١٨]: فـــ {تَابَ عَلَيْهِمْ}: هذه توبته

[1] أخرجه البخاري: رقم (٧٥٠٧)، ومسلم: رقم (٢٧٥٨)، واللفظ له.

سبحانه، {لِيَتُوبُواْ}: أي لتقع منهم التوبة، ثم إن توبة الرب على عبده تكون على صورتين:

أُولاهما: بتوفيق العبد للتوبة؛ **ثانيهما:** بقبول التوبة منه.

وهذا يُفسر معنى قوله: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ} [التوبة: ١١٨]: أي وفقهم للتوبة فتابوا، ثم تاب الله تعالى عليهم؛ قال الله تعالى: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ} [التوبة: ١١٧]، وأما توبة العبد إلى الرب فبالرجوع عن المعصية إلى الطاعة.

قوله: {وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢]: جمع مُتطهر، **والطهارة نوعان:**

النوع الأول: الطهارة الحسية؛ وتكون من الحدث والنجس.

النوع الثاني: الطهارة المعنوية؛ وتكون من الكفر، والشرك، والنفاق، والظلم، والفسوق، والعصيان، والبدعة، وما أشبه؛ من الأمور المعنوية.

وكلا الأمرين مطلوب؛ قال تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المُدثر: ٤]؛ فالمؤمن حقًا طاهر، ظاهرًا وباطنًا؛ فثوبه طاهر، وبدنه طاهر، وبُقعته التي يُصلي عليها، ويجلس عليها طاهرة؛ فهو لا يتلبس بالنجاسات، ولا يُباشرها، ولا يأكل النجاسات، ولا يشربها، وهو أيضًا مُتطهر في أُموره المعنوية؛ فلا يُلابسه شرك، ولا فسق، ولا عصيان، وإن وقع له شيء من ذلك تطهر منه، ولهذا قال: {وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}، ولم يقل: الطاهرين، لأنهم يتطهرون؛ ففيها معنى التفعُّل.

فدلت الآيات السابقة على إثبات صفة المحبة لله تعالى، وهذا أمر جلي، فإن قارئ القُرآن لا يشك في إثباتها لله تعالى؛ فالله، سبحانه وتعالى، يُحب من الأشخاص، والأعمال، والأحوال، والأماكن، والأزمنة، ما يشاء؛ يُحب من الأشخاص: محمدًا، صلى الله عليه وسلم، وسائر أنبيائه، والمتقين، والمحسنيين، والمقسطين، والتوابين، والمتطهرين، ويُحب من الأعمال: الصلاة على وقتها، وبر

الوالدين، والجهاد في سبيل الله، وسائر مُراداته الشرعية، وبعضها أحب من بعض؛ فقد سئل النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللّهِ؟ قَالَ: «الصّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا)[١]، ويُحب من الأحوال: السجود، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ)[٢]، ويُحب سبحانه وتعالى من الأماكن: مكة شرفها الله، والمدينة، وبيت المقدس، ويُحب سبحانه من الأزمنة: رمضان، وعشر ذي الحجة، وهكذا، فلله تعالى أن يُحب ما يشاء؛ من الأشخاص، والأعمال، والأحوال، والأزمنة، والأمكنة.

قوله: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٣١]: هذه الآية دليل على أن المحبة تقع من الطرفين؛ فالمؤمنون يُحبون ربهم، والرب يُحب عباده المؤمنين المتبعين، لكن هذه المحبة من الله مشروطة باتباع نبيه ﷺ ، وتُسمى هذه الآية: "آية المحنة"؛ فقد ادعى قوم من اليهود والنصارى محبة الله، زمن النبي، صلى الله عليه وسلم، فابتلاهم الله بهذه الآية، وامتحنهم.

قوله: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]: هذه الجملة جواب الشرط المذكور في أول الآية؛ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ} [المائدة:٥٤]؛ ففيها وعيد على المرتدين، ووعد بالإتيان بقومٍ أخص أوصافهم محبة الله لهم، ومحبتهم إياه، وقد انطبق ذلك على أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ومن معه من الصحابة، والتابعين، الذين قاتلوا المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ ، وحكمها باق إلى يوم القيامة؛ ففيها دليل، كسابقتها، على وقوع المحبة من الطرفين.

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٥٢٧)، ومسلم: رقم (٨٥).

[٢] أخرجه مسلم: رقم (٤٨٢).

قوله: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [الصف: ٥]: هذه الآية في بيان محبة الله لمن جمع هذه الأوصاف:

أولها: أن يكون القتال في سبيله.

ثانيها: أن يكون المقاتلون صفاً متحدين.

ثالثاً: أن يكون المقاتلون متراصين متماسكين.

قوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: ١٤]: المودة أعلى درجات المحبة، فالله ودود: أي عظيم المحبة لأوليائه. والغفور: مُشتق من الغَفْر، وهو الستر والتجاوز؛ فالله يستر الذنب، ويتجاوز عنه، ومنه سُمي المغفر، الذي يُجعل على الرأس، لأنه يستر الرأس ويقيه.

فهذه آيات محكمات، تُسند فيها المحبة إلى الله، عز وجل؛ فيجب أن نعتقد بأن من صفات الله تعالى المحبة، وهي صفة تليق به سبحانه وبحمده؛ لا تُشبه محبة المخلوقين، فلئن كانت محبة المخلوق شيء من الانعطاف، والرقة، ونحو ذلك، فمحبة الله لا يلزم عليها شيء من اللوازم البشرية.

وقد أثبت أهل السنة والجماعة هذه الصفة، وغصّ بها أهل البدع، من المتكلمين النُفاة.

قال الشيخ مرعي الكرمي في حكاية تأويلهم: (المحبة: ميل القلب إلى ما يلائم الطبع، والله منزه عن ذلك، وحينئذٍ فمحبة الله للعبد: هي إرادة اللطف به، والإحسان إليه. ومحبة العبد لله: هي محبة طاعته في أوامره ونواهيه، والاعتناء بتحصيل مراضيه. فمعنى: يحب الله، أي: يحب طاعته وخدمته، أو يحب ثوابه وإحسانه، وهذا مذهب جمهور المتكلمين)[١]؛ فأنكروا المحبة من الطرفين!

---

[١] أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: (٧٧).

والجواب على شبهتهم أن يقال: هذه محبة المخلوق، ومحبة الله تليق به، والله ليس كمثله شيء، وأنتم تُثبتون لله سمعًا، وبصرًا، مع أن المخلوق له سمع وبصر؛ فأثبِتوا له محبة كذلك.

- فإن قالوا: إن سمع الله يليق به، وبصر الله يليق به.

- قلنا: وكذلك محبة الله تليق به.

فلا فرق بين ما أثبتموه، وبين ما نفيتموه؛ فكل ما أثبته الله تعالى لنفسه، أو أثبته له رسوله، فإنا نُثبته؛ لأن الله أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من خلقه، ولا يلزم من إثبات ذلك أن يلحقه شيء من اللوازم الباطلة؛ فإن الله ليس كمثله شيء.

وقولهم: لا يُمكن أن تقع المحبة من الطرفين، لأنه لا تجانس بينهما! مجرد دعوى؛ لا دليل عليها، والحق ما دل عليه الدليل الشرعي، والحسي الوجدي؛ فكل مؤمن يجد في قلبه شوقًا، وميلًا، ومحبة حقيقية لله، عز وجل، وهو قدر زائد على فعل الأوامر، واجتناب النواهي، بل ربما وقع من العبد إخلال بطاعة الله، وثبتت محبته لله له؛ كالرجل الذي كان يؤتى به إلى رسول، الله صلى الله عليه وسلم، بسبب شُرب الخمر، فعن زيد بن أسلم قال: أُتِيَ بِابْنِ النُّعَيْمَانِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِرَارًا، أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ، فَجَلَدَهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يَشْرَبُ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يُجْلَدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)[1]، يعني عنده أصل المحبة، لكن دون محبة أهل الإيمان التام، والطاعة.

ودعوى أنه لا يُمكن أن تقع محبة بين غير مُتجانسين دعوى ساقطة، بل نقول: إنه تقع محبة بين الأشياء غير المُتجانسة، ألست مثلًا تُحب شُرب الماء؟

---

[1] أخرجه عبد الرزاق في مصنفه: رقم (١٣٥٥٢).

أنت جنس والماء جنس، ألست تُحب لعق العسل؟ وأنت جنس وهو جنس، أليس الرجل أحيانًا يُحب دابته؟ وهي حيوان، أليس بعضكم يُحب سيارته؟ يُحبها مع أنها جماد، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: (أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)[١]، وهو جبل، وهذا أمر معروف عند بني آدم؛ يُحب الإنسان أحيانًا بعض المجالس، وبعض البيوت، وبعض المراكب، وبعض الثياب؛ فلا تُرد النصوص المُحكمات بمثل هذه التعليلات المزعومة.

ودعوى أن محبة العبد لربه: طاعته، ومحبة الرب لعبده إثابته، وإن سموه تأويلًا، فهو في الحقيقة تحريف، لأنه تغيير لمُراد الله تعالى، وأهل السنة والجماعة يُثبتون لله ما أثبته لنفسه؛ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل، والإثابة لازم المحبة، وليست المحبة، وقد تُحب صديقك محبة حقيقة، ونتيجة لهذه المحبة قد تُقدم له هدية، فتقديمك للهدية إثابة، وهي قدر زائد على مجرد المحبة، بدليل أنك يمكن أن تُحبه، ولا تُهديه؛ لعدم قُدرتك، أو لسبب من الأسباب؛ فالمحبة شيء، ولازمها شيء.

كما دلت الآيات السابقات على إثبات إرادة الله الشرعية، التي بمعنى المحبة، وأنه لا يلزم من محبة الله للشيء وقوعه وتحققه؛ فقد يُحب ما لا يشاء، وقد يشاء ما لا يُحب، سبحانه وبحمده، وله في ذلك حكمة، فالله يحب منا الإحسان، والقسط، والتقوى، وأن نُقاتل في سبيله صفًا، ونحو ذلك؛ من الأعمال الصالحات، ومع ذلك قد تقع، وقد لا تقع، بخلاف الإرادة الكونية؛ فإنه لا بد من وُقوعها، كما قال الله، عز وجل: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠].

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٤٤٢٢)، ومسلم: رقم (١٣٩٢).

والأثر المسلكي لإثبات صفة المحبة أن يحرص الإنسان على تحقيق محبة الله تعالى، وأن يكون محبًا لله، ومحبوبًا لله، فإن هذه أعظم وشيجة بين العبد وربه، فإن الله لا يُعذب من يُحب؛ فيسعى المؤمن في تلمس أسباب محبة الله، التي ينال بها الدرجات العُلى؛ بتحصيل الأوصاف الشريفة، المنصوص عليها في كتابه.

إثبات اتصافه بالرحمة سبحانه وتعالى

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

(وَقَوْلُهُ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: ٧]، {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]، {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦]، {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]، {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: ١٠٧، الأحقاف: ٨]، {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤]).

(الشرح)

هذه الآيات دلت على إثبات صفة الرحمة لله، سبحانه وتعالى، واستهلها، ببسم الله الرحمن الرحيم، وقد تقدم الكلام عليها، في أول هذا الشرح.

قوله: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: ٧]: جاءت هذه الجملة في سياق دعاء الملائكة: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} [غافر: ٧]، أي أحاطتك رحمتك وعلمك بكل شيء، و (كل) من ألفاظ العموم، و (رحمةً) تمييز، و(علمًا) معطوف عليه.

قوله: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]: هذا يدل على اتصاف الله بالرحمة الخاصة بالمؤمنين؛ لأن تقديم الجار والمجرور يدل على الاختصاص، ورحمة الله بالمؤمنين ظاهرة وخفية، في الدنيا والآخرة.

قوله: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦]: قالها الله تعالى في سياق كلامه لموسى، عليه السلام، حين اختار من قومه سبعين رجلًا لميقات الله، فأخذتهم الرجفة، فدعاه، وأجابه، وفيها إضافة الصفة إليه سبحانه.

قوله: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]: أمر الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، أن يقول ذلك لضُعفاء المؤمنين الذين يأوون إليه: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]، وهذه كتابة كونية، ومعناها: أنه سبحانه أوجب الرحمة على نفسه؛ كقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي)[1]، لا كما تدعيه المعتزلة؛ من أنه يجب على الله فعل الصلاح، أو الأصلح، حتى إنهم يُوجبون على الله، بمحض عُقولهم، ما يستشنع الإنسان قوله، ويدعون أن العقل يقضي بذلك؛ فيقولون: يجب على الله أن يفعل كذا، ويمتنع عليه أن يفعل كذا، حسب ما تقضيهم عقولهم؛ فهم نُفاة الصفات، مُشبهة الأفعال.

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٧٤٢٢)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٧٥١).

قوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: ١٠٧، الأحقاف: ٨]: تقدم معناهما.

قوله: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤]: هذا من كلام يعقوب، صلى الله عليه وسلم، لبنيه، حين طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم بنيامين؛ فدل على إثبات صفتي الحفظ والرحمة لله تعالى، وأنه أرحم الراحمين؛ وذلك أن له المثل الأعلى من كل وصف، فالرحمة معنى مشترك؛ يُضاف إلى الخالق، وإلى المخلوق، لكن لله من الرحمة أعلاها، كما دلت عليه صيغة (أفعل)، التفضيل.

وقد أنكر المتكلمون صفة الرحمة، قالوا: الرحمة ضعف ورقة، والله مُنزه عن ذلك، وأولوها بالإنعام، أو إرادة الإنعام! قال الشيخ مرعي الكرمي في حكاية تأويلهم: (الرحمة لغةً: رقة القلب وانعطافه، وذلك من الكيفيات التابعة للمزاج، والله منزه عنها. فالمراد بها في حقه تعالى: إرادة الخير والإحسان إلى من يرحمه، فإن أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادئ التي هي انفعالات)[١].

والجواب عن شبهتهم أن نقول: هذا الذي وصفتموه رحمة المخلوق؛ فالمخلوق هو الذي إذا أدركته رحمة تضعضع وبكى، ولحقه ضعف ورقة، أما رحمة الله فلا يلزم منها هذه اللوازم البشرية؛ فلله رحمة تليق به، وللمخلوق رحمة تليق به، واتفاق الأسماء لا يستلزم اتفاق المسميات، وكما أنكم تثبتون لله حياة، وسمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وإرادة، وقُدرة، وكلامًا، وتقولون: إنها على ما يليق به، فقولوا مثل ذلك في صفة الرحمة، والآيات مُتكاثرة في إثباتها، وإضافتها إلى الله؛ فتفسير الرحمة بالإنعام، أو بإرادة الإنعام تحريف، وإن سميتموه تأويلًا؛ فالرحمة صفة حقيقية تليق به؛ بها يرحم المرحومين، وفرق بين حقيقة الصفة،

---

[١] أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: (٧١).

وبين آثارها؛ فأنت ترى الفقير فترحمه، وقد تجد مالًا فتحسن إليه، وقد لا تجد فيَصدُق عليك قطعًا أنك رحمته.

والرحمة المُضافة لله، عز وجل، قد تكون الصفة، وقد تكون الرحمة المخلوقة؛ بحسب السياق، **ويتضح ذلك بمثالين:**

المثال الأول: عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطّاب، رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ، قال: (قَدِمَ عَلَى النّبِيّ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النّارِ» قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لَلّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»)[1]؛ فهذه الرحمة صفة الرب، رحمة حقيقية.

المثال الثاني: في الحديث: (جَعَلَ اللهُ الرّحْمَةَ مائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتّى تَرْفَعَ الدّابّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ)[2]؛ فهذه الرحمة المنزلة مخلوقة، وليست الصفة، بل هي آثار الصفة؛ كما قال تعالى: {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [الروم: ٥٠].

فتبين بذلك وجوب إثبات اسم الله الرحمن، واسم الله الرحيم، ووجوب إثبات ما تضمناه من صفة الرحمة، وأنه لا يجوز تحريفها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام.

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٥٩٩٩)، ومسلم: رقم (٢٧٥٤).

[2] أخرجه البخاري: رقم (٦٠٠٠)، ومسلم: رقم (٢٧٥٢).